تفريغ دورة

مختصر منهاج القاصدين

ربع المهلكات

لابن قدامة المقدسي

www.abobakrelkady.net
abobakrelkady AboBakr Elkady

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

بسم الله، والصلاة والسلام على رسول الله، صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، ثمّ أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور مُحدثاتها، وكل مُحدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة، وكل ضلالةٍ في النار، ثمّ أما بعد:

لا زلنا في كتاب «مختصر منهاج القاصدين» لابن قدامة -رحمه الله تعالى-، ولا زلنا في ربع المهلكات، وسوف يليها المنجيات في كتاب بعده.

فالإنسان ينبغي عليه أن يعرف الشر لا للشر، ولكن لتوقيه ومن لم يعرف الشر من الخير يقع فيه

قال تعالى: {وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ} [الأنعام: ٥٥]

فالتزكية كلها قائمة على التّخلية ثمّ التّحلية، التخلية من أمراض القلوب، من أمراض الجهل، من أمراض الشهوات، من أمراض الشبهات، من أمراض التعلق بالدنيا، والتي تورث الحقد والحسد والعلو والوغر والغل والغيظ والغرور والكبر والرياء والعجب وغير ذلك، وكل هذا نابع من حب الدنيا، لذلك قال الإمام الأوزاعي -رحمه الله-: "حب الدنيا رأس كل خطيئة"

قال: باب في ذم الدنيا... الآيات الواردة في القرآن العزيز بعيب الدنيا، والتزهيد فيها، وضرب الأمثال لها كثيرة كقوله تعالى:

{زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ * قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ} [آل عمران: ١٤،١٥]

وقوله: {وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ} [آل عمران: ١٨٥]،

وقوله: {إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ} [يونس: ٢٤]

وقوله: {اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ} [الحديد: ٢٠]

وقوله: {وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ} [الزخرف: ٣٥]،

وقوله: {فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا* ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ} [النجم: ٢٩، ٣٠]

قال: "وأما الأحاديث، ففي الصحيحين من رواية المستورد بن شداد، قال: قال رسول اللهﷺ: "ما الدنيا في الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم، فلينظر بم ترجع؟ "

وفي حديث آخر: "الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر" [رواه مسلم]

وفي حديث آخر: "لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء" [رواه الترمذي وصححه]

وفي حديث آخر: "الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله منها"

وروى أبو موسى، عن النبيﷺ، أنه قال: "من أحب دنياه أضر بآخرته، ومن أحب آخرته أضر بدنياه، فآثروا ما يبقى على ما يفنى"

قال: "وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز في ذم الدنيا كتابًا طويلًا فيه: "أما بعد فإن الدنيا دار ظعن ليست بدار مقام، وإنما أنزل إليها آدم عقوبة، فاحذرها يا أمير المؤمنين، فإن الزاد منها تركها، والغنى فيها فقرها، تُذل من أعزها، وتفقر من جمعها، كالسم يأكله من لا يعرفها وهو حتفه، فاحذر هذه الدار الغرارة الختالة الخداعة، وكن أسر ما تكون فيها، احذر ما تكون لها، سرورها مشوب بالحزن، وصفوها مشوب بالكدر، فلو كان الخالق لم يخبر عنها خبرًا، ولم

يضرب لها مثلًا لكانت قد أيقظت النائم، ونبهت الغافل، فكيف وقد جاء من الله عزوجل وعنه زاجر، وفيها واعظ، فما لها عند الله سبحانه قدر ولا وزن، وما نظر إليها منذ خلقها.

ولقد عرضت على نبينا محمد ﷺ مفاتيحها وخزائنها، لا ينقصه عند الله جناح بعوضة، فأبى أن يقبلها، وكره أن يحب ما أبغض خالقه، أو يرفع ما وضع مليكه، زواها الله عن الصالحين اختيارًا، وبسطها لأعدائه اغترارًا، أفيظن المغرور بها المقتدر عليها أنه أكرم بها؟ ونسى ما صنع الله بمحمدﷺ، حين شد على بطنه الحجر، والله ما أحد من الناس بسط له في الدنيا، فلم يخف أن يكون قد مكر به فيه، وإلا كان قد نقص عقله، وعجز رأيه، وما أمسك عن عبد فلم يظن أنه قد خير له فيها، إلا كان قد نقص عقله وعجز رأيه"

يعني الذي يمد له فيها ينبغي أن يحذر ويتنبه ويعلم أن هذا من المكر، ومن أمسك عنه وقبض فليعلم أن هذا خير وإلا فهو ناقص العقل.

"وقال مالك بن دينار: "اتقوا السّحارة، فإنها تسحر قلوب العلماء"

أي الدنيا فإنها تسحر قلوب العلماء بالجاه والصيت والشهرة وتمني الظهور، وهذا من الشهوات التي تتسرب إلى كثير من القلوب حتى من يترك الشهوات الظاهرة من الفرج والبطن، ولكن هناك شهوات خفية من حب العلو وحب الظهور وحب المدح والثناء وأن يشار إلى الإنسان بالبنان، وكل هذا من حب العلو.

وقد قال تعالى: {تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًاۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} [القصص: ٨٣]

ومن أمثلة الدنيا: قال يونس بن عبيد: ما شبهت الدنيا كرجل نائم، فرأى في منامه ما يكره وما يحب، فبينما هو كذلك انتبه، ومثل هذا قولهم: "الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا" والمعنى أنهم ينتبهون بالموت وليس في أيديهم شيء مما ركنوا إليه وفرحوا به.

إذًا هي أحلام نومٍ أو كظلٍ زائلٍ إن اللبيب بمثلها لا يخدع.

قيل: "إن عيسى عليه السلام رأى الدنيا في صورة عجوز هتماء عليها من كل زينة، فقال لها: كم تزوجت؟ قالت: لا أحصيهم.

قال: فكلهم مات عنك أو كلهم طلقك؟ قالت: بل كلهم قتلت، فقال عيسى عليه السلام: بؤسًا لأزواجك الباقين، كيف لا يعتبرون بأزواجك الماضين، كيف تهلكينهم واحدًا بعد واحد، ولا يكونون منك على حذر"

وروي عن ابن عباس رضي الله عنه قال: "يؤتى بالدنيا يوم القيامة في صورة عجوز شمطاء زرقاء أنيابها بادية، مشوه خلقها، فتشرف على الخلق، فيقال: هل تعرفون هذه؟ فيقولون نعوذ بالله من معرفة هذه، فيقال: هذه الدنيا التي تشاجرتم عليها وبها تقاطعتم الأرحام، وبها تحاسدتم وتباغضتم واغتررتم، ثم تقذف في جهنم، فتقول: يا رب أين أتباعي وأشياعي؟ فيقول: ألحقوا بها أتباعها وأشياعها"

وعن أبي العلاء، قال: "رأيت في النوم عجوزًا كبيرة عليها من كل زينة، والناس عكوف عليها متعجبون، ينظرون إليها، فقلت: لها من أنت ويلك؟ قالت: أما تعرفني؟ قلت: لا، قالت: فإني الدنيا، فقلت: أعوذ بالله من شرك، قالت: إن أحببت أن تعاذ من شري فأبغض الدرهم"

"وقال بعضهم: رأيت الدنيا في النوم عجوزًا مشوهة الخلقة حدباء.

ومثال آخر: واعلم أن أحوالك ثلاث: حال لم تكن فيها شيئًا، وهي قبل أن توجد، وحال أخرى، وهي من ساعة موتك إلى ما لا نهاية له في البقاء السرمدي، فإن لنفسك وجودًا بعد خروجها من بدنك، إما في الجنة أو النار، وهو الخلود الدائم، وبين هاتين الحالتين حالة متوسطة، وهي أيام حياتك في الدنيا.

فانظر إلى مقدار ذلك وأنسبه إلى الحالتين، تعلم أنه أقل من طرفه عين في مقدار عمر الدنيا، وفي مقدار العمرين العمر الذي قبل أن توجد والعمر الذي بعد موتك هو أقل من ذلك، ذكرنا هذا بالتفصيل في أول كتاب «عجائب القلب»

ومن رأى الدنيا بهذه العين لم يركن لها، ولم يبالِ كيف انقضت أيامه في ضرر وضيق، أو سعة ورفاهية، ولهذا لم يضع رسولﷺ، لبنة على لبنة، ولا قصبة على قصبة وقال: "مالي وللدنيا؟ إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب قال: تحت الشجرة، ثم راح وتركها"

"وقال عيسى عليه السلام: "الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها"

هذا مثل واضح، فإن الحياة الدنيا معبر إلى الآخرة، والمهد هو الركن الأول على أول القنطرة، واللحد هو الركن الثاني على آخر القطرة"

رحلة الحياة، عجيبة هذه الرحلة وأنت تجد الناس يغترون بها، وهي أقصر ما تكون، وأسرع انقضاء بأسرع سرعة

{ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ} [الروم :٥٤]

تمامًا كالنبات

{وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا} [الكهف: ٤٥]

ويعيش أقوام وأجيال ويموتون وتنقضي حياتهم بكل ما فيها من آلام وآمال وأفراح وملك وسلطان وشهوات ولذائذ وحظوظ وشهرة وقوة وصحة وعافية كل هذا يكون ترابًا يذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدر، ومع ذلك الناس لا يتعظون بالموت والفناء والاضمحلال.

{إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ} [فاطر:١٦،١٧]

لأن الدنيا تسحرهم وتشغلهم عن ذلك، لوتذكر الإنسان كيف يموت؟ وكيف يغسل؟ وكيف يكفن؟ وكيف يدفن؟ كيف أن هذا الأمر لا يغني عنه منه شيء من أمور الدنيا لا ملك ولا سلطان ولا حشم ولا خدم ولا حراسة وغير ذلك، وأنه مهما كان عاليًا، مهما كان ملكًا، مهما كان فرعونًا حتى فإنه إلى التراب والزّوال والاضمحلال والموت وإلى غذاء للدود في التراب وهذا الصديد الذي يخرج من جثته ويبلى كل جزء فيها، عجيب هذا الأمر.

قال: "ومن الناس من قطع نصف القنطرة، ومن الناس من قطع ثلثيها، ومنهم من لم يبق له إلا خطوة واحدة وهو غافل عنها"

على فكرة قد يكون متبقى لناس خطوة واحدة، وأنت لا تعلم إذا خرجت النفس قد لا تدخل مرة أخرى.

"وكيفما كان فلابد من العبور، فمن وقف يبني على القنطرة ويزينها وهو يستحث للعبور عليها، فهو في غاية الجهل والحمق.

وقيل: "مثل طالب الدنيا، مثل شارب ماء البحر كلما ازداد شرابًا ازداد عطشًا حتى يقتله"

وكان بعض السلف يقول لأصحابهم: "انطلقوا حتى أريكم الدنيا فيذهب بهم إلى مزبلة فيقول: انظروا إلى ثمارهم ودجاجهم وعسلهم وسمنهم"

المزبلة والمقبرة خزان الرجال وخزان المال.

مثال آخر: روي عن الحسن قال: "بلغني عن رسول اللهﷺ، أنه

قال: "إنما مثلي ومثلكم ومثل الدنيا كمثل قوم سلكوا مفازة غبراء، حتى إذ لم يدروا ما سلكوا منها أكثر أو ما بقي، أنفذوا الزاد وخسروا الظهر، وبقوا بين ظهراني المفازة، لا زاد ولا حمولة، فأيقنوا بالهلكة، فبينما هم كذلك، إذ طلع عليهم رجل في حلة يقطر رأسه، فقالوا: إن هذا قريب عهد بريف، وما جاءكم هذا إلا من قريب، فلما انتهى إليهم قال: يا هؤلاء، علام أنتم؟ قالوا: على ما ترى.

قال: أرأيتكم إن هديتكم إلى ماء رواء ورياض خضر ما تعملون، قالوا: لا نعصيك شيئًا، قال: عهودكم ومواثيقكم - أي أعطوني عهودكم ومواثيقكم- قال: فأعطوه عهودهم ومواثيقهم بالله لا يعصونه شيئًا، قال: فأوردهم ماء ورياضًا خضرا فمكث فيه ما شاء الله ثم قال: يا هؤلاء، الرحيل. قالوا: إلى أين؟ قال: إلى ماء ليس كمائكم، وإلى رياض ليست كرياضكم، فقال أكثر القوم: والله ما وجدنا هذا حتى ظننا أن لن نجده، وما نصنع بعيش خير من هذا؟ وقالت طائفة قليلة: ألم تعطوا هذا الرجل عهودكم ومواثيقكم بالله لا تعصونه؟ وقد صدقكم في أول حديثه، فوالله ليصدقنكم في آخره. قال: فراح فيمن اتبعه، وتخلف بقيتهم فنزل بهم عدو، فأصبحوا بين أسير وقتيل"

وهذا مثل النبيﷺ مع الناس أخبرهم على حياة طيبة في الدنيا، وأخبرهم أن بعد هذه الحياة الرحيل والجنة في الآخرة، فمن صدقه في الأول يصدقه وعد الله عزّ وجلّ في الآخرة

{تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا} [مريم: ٦٣]

{وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ} [الأحقاف: ١٦]

وأما من لم يصدقهم في الدنيا، فإنه خاب وخسر و يستأسر به عدوه، ويخسر خسرانًا عظيمًا.

قال: "وفي الصحيحين من حديث أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول اللهﷺ: "إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به، كمثل رجل أتى قومه فقال: يا قوم، إني رأيت الجيش بعيني، وأنا النذير العريان، فالنجاة، فأطاعه طائفة من قومه، فأدلجوا وانطلقوا على مهلهم، فنجوا، وكذبته طائفة منهم، فأصبحوا مكانهم. فصبحهم الجيش في مكانهم -عذاب الله عزّ وجلّ وبأسه- فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعني واتبع ما جئت به، ومثل من عصاني وكذب بما جئت به من حق"

قال: "فصل في بيان حقيقة الدنيا والمذموم منها والمحمود..

قد سمع خلق كثير ذم الدنيا مطلقًا، فاعتقدوا أن الإشارة إلى هذه الموجودات التي خلقت للمنافع، فأعرضوا عما يصلحهم من المطاعم والمشارب -كالرهبانية والتي يشبهها بعض الصوفية والدروشة- وقد وضع الله في الطباع توقان النفس إلى ما يصلحها، فكلما تاقت منعوها ظنًا منهم أن هذا هو الزهد المراد، وجهلًا بحقوق النفس، وعلى هذا أكثر المتزهدين، وإنما فعلوا ذلك لقلة العلم، ونحن نصدع بالحق من غير محاباة، فنقول: اعلم أن الدنيا عبارة عن أعيان موجودة للإنسان فيها حظ، وهي الأرض وما عليها، فإن الأرض مسكن الأدمى، وما عليها ملبس ومطعم ومشرب ومنكح، وكل ذلك علف لراحلة بدنه السائر إلى الله عزّ وجلّ، فإنه لا يبقى إلا بهذه المصالح - هذا من جانب البيولوجي- كما لا تبقى الناقة في طريق الحج إلا بما يصلحها، فمن تناول منها ما يصلحه على الوجه المأمور به مدح"

وهذا يكون من باب الوسائل لا أن تتحول حياته بطن وفرج.

ومن أخذ منها فوق الحاجة يكف الشره وقع في الذم، فإنه ليس للشره في تناول الدنيا وجه، لأنه يخرج عن النفع إلى الأذى، ويشغل عن طلب الآخرة فيفوت المقصود -بل يكون الإنسان بهيمة في الحقيقة تغلب شهوته عقله- ويصير بمثابة من أقبل يعلف الناقة، ويرد لها الماء، ويغير

عليها ألوان الثياب، وينسى أن الرفقة قد سارت، فإنه يبقى في البادية فريسة للسباع هو وناقته"

وهذا الذي سيحدث فيفترسه الشيطان ويجعله عبدًا للدرهم والدينار والقطيفة والخميصة فيضيع عليه عمره ويجعله يخسره ويتوقظ بعد ذلك عند مجيء ملك الموت.

"ولا وجه أيضًا للتقصير في تناول الحاجة، لأن الناقة لا تقوى على السير إلا بتناول ما يصلحها، فالطريق السليم هي الوسطى، وهي أن يؤخذ من الدنيا قدر ما يحتاج إليه من الزاد للسلوك، وإن كان مشتهىً، فإن إعطاء النفس ما تشتهيه عون لها وقضاء لحقها.

وقد كان سفيان الثوري يأكل في أوقات من طيب الطعام، ويحمل معه في السفر الفالوذج، وكان إبراهيم ابن أدهم يأكل من الطيبات في بعض الأوقات، فيقول: إذا وجدنا أكلنا أكل الرجال، وإذا فقدنا صبرنا صبر الرجال، ولينظر في سيرة رسول الله ﷺ، وصحابته، فإنهم ما كان لهم إفراط في تناول الدنيا، ولا تفريط في حقوق النفوس.

وينبغي أن يتلمح حظ النفس في المشتهى، فإن كان في حظها حفظها وما يقيمها ويصلحها وينشطها للخير، فلا يمنعها منه -لا سيما ان كان مباحًا-، وإن كان حظها مجرد شهوة -حتى لو كان مباح- ليست متعلقة بمصالحها المذكورة، لكن أن يكون بقدر من قدور المباحات وما يشغله عن علو الهمة، ومعالي الأمور من أمور الآخرة، فذلك حظ مذموم والزهد فيه يكون"

نقف عند باب في ذم البخل والحرص والطمع وذم المال ومدحه وننتهي منه المرة القادمة، ونبدأ بعد هذا في كتاب ذم الجاه والرياء وعلاجهما وفضيلة الخمول وغير ذلك.

أقول قولي هذا واستغفر الله العظيم لي ولكم وسبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.